



Source : AN-NAHAR
Date : 3-8-95
Photo No. : 203

اللجوء الى التاريخ والهرب منه

في اي مكان آخر، كان بدا المشهد طبيعياً: جمهرة من المارة ينظرون الى العاملين في موقع اثري عليم يتلمسون بالعين المجردة عظمة الاكتشاف الذي ظالمتم به الصحف.

في اي مكان آخر، كان بدا المشهد مؤثراً: احياء، هنا والآن، يتطلعون الى بقايا اموات من مدينتهم وكأنهم "ياخذون روحاً" من رؤية الاسلاف.

في اي مكان آخر، كان بدا المشهد مستحياً: اناس من بيروت وضيوف علمها يتفرجون على تاريخها العتيق حين يطفو الى السطح.

لكن المشهد كان يثير الاستغراب بل الريبة. فالذين ينحنون امام الحفرة الكبيرة ليروا المقبرة القديمة لا ينتبهون انهم يديرون ظهورهم الى مقبرة اقل قدماً، وان تكن هي ايضا جديرة باهتمام المؤرخين. او لعلمهم انتموها ان تلك، فكانت استدارتهم اشارة بليغة الى الطريقة التي بات يفهم بها اهل بيروت اليوم تاريخهم.

لم تصح عبارة "سخرية التاريخ" مثلما صحت، ربما، منذ اكتشاف ما اتفق على تسميته تجاوزاً مقبرة برج المر. كان يمكن اكتشاف مدافن كثيرة في محيط المدينة القديمة. بل ما زال مرجحاً ان يتم ايجاد مثل هذه المدافن كلما انغرس معول في الارض. لكن الصدفة شاءت ان يكون الاكتشاف الاول في هذا المكان بالذات، حيث يرتطم التاريخ الغابر بالتاريخ الحديث. تاريخ نكاد نجهل اي شيء عنه، وتاريخ حفظناه عن ظهر قلب. تاريخ لا نعرف ان كان سعيداً او بائساً، وتاريخ نعرف بالتجربة الحسية كم كان مأسوياً. تاريخ نلجأ اليه كمن يبحث عن ناته وتاريخ نهرب منه لنهرب من نواتنا.

- "مقبرة برج المر"! العبارة في نواتها كفيلة بدفع الفكر الى مقارنة مفهومية دسمة من شأنها المساهمة في بلورة وعي تاريخي لا يكون منقوصاً. لكننا في بلد لا يحب الا اليقين. واليقين، في التداول الاعلامي لهذه العبارة، كما في العقيدة الرسمية التي تنظر لها، يفضي الى عكس ما ارادته سخرية التاريخ، فتصبح مقبرة برج المر دليلاً على تشييب التاريخ وتفريفه، لا على احيائه.

وهكذا لن يطول الوقت قبل ان نصبح قلة ضئيلة، نحن الذين تثير فينا عبارة "مقبرة برج المر" ذكرى الذين قضوا فيه في مراحل مختلفة من الحرب. ونعني بالحرب تلك التي دارت رحاها في الربع الاخير من القرن العشرين الميلادي، وليس حرب تريفون في القرن الثاني قبل الميلاد، او حروب الفرس قبله او حملة بومبيوس الروماني بعده.

وفي هذه الحرب، حرب الربع الاخير من القرن العشرين، كان برج المر معلماً بارزاً، كما فندق "هوليداي إن" قبائلته، وكما برج رزق في الطرف الآخر من المدينة. كان موقعا حربيا قبل ان يتحول سجوناً غصن بالمعتقلين في مرحلة متأخرة اتفق على تعريفها بمرحلة سيطرة الميليشيات على بيروت الغربية، وبشكل اكثر تحديدا في الفترة المعروفة باسم حرب المخيمات. الا يستحق هذا التاريخ علماء آثار؟

قبل اشهر سرت انباء حول اكتشاف جثث داخل هذا الصرح الحربي خلال عمليات تنظيفه، كما كانت شاعت اخبار قبلها حول وجود مقبرة جماعية في محيط المرفأ، وتحديدا داخل محطة التسفير (جادة شارل حلو) القريبة من المجلس الحربي السابق لـ"القوات اللبنانية". لم يمكن التأكد وقتها من هذه الانباء، ولم يكن اصلاً من السهل البوح بها. لا لأن كل ما يتصل بالوسط التجاري محكوم بالضبابية، فالحق يقال انه لا علاقة لشركة "سوليدير" بهذا الائم على الاقل، وأما لأن اثاره أي موضوع يتعلق بالمرحلة المتأخرة من الحرب تطاول اسس الدولة القائمة منذ الطائف وبعض رموزها.

في أي حال، قد يكون الامر مجرد اشاعة بدت قابلة للتصديق لأن برج المر "جسمه لبيس" وكذلك من كانوا مسؤولين عنه. ولكن لا حاجة لايجاد الجثث حتى يتذكر من بقي له رغبة في التذكر اهمية هذا الصرح وضرورة الاعتناء به بالطريقة التي نعتني بها بالصروح القديمة.

فطالما صار التاريخ مسرح العابنا الجديد، فلماذا لا يعطى مؤرخو العصر الحديث القليل القليل مما اعطي لمؤرخي العمود القديمة، حتى يستطيعوا دراسة ما بقي من نقوش وشعارات وبقايا اعددة حربية في مواقع حربنا، حرب الربع الاخير من القرن العشرين.

... أم ان الربع الاخير من القرن العشرين هو تحديدا ما يراد المهروب منه، حتى نصل بأمان الى بيروت القرن الحادي والعشرين والمستقبل العريق؟

سمير قصير